أجرى المقابلة: أنطوان شلحت وبلال ضاهر

مع أستاذ دراسات الشرق الأوسط في
«جامعة بن غوريون» في بئر السبع

يورام ميتال: المجتمع الإسرائيلي قرّر أن تكون دولته «غيتو» لا أكثر!

*** الوضع في إسرائيل الآن يبدو غير قابل للتغيير، ومن أجل الخروج منه يجب أن تحدث أزمة شديدة جداً أشبه بكارثة تعيد خلط الأوراق من جديد***

يرى البروفسور يورام ميتال أستاذ دراسات الشرق الأوسط في «جامعة بن غوريون» في بئر السبع، أن موقف بنيامين نتنياهو الذي يعتبر أن الاعتراف الفلسطيني بإسرائيل كدولة قومية للشعب اليهودي هو حجر الزاوية للسلام، يكشف الأساس الأيديولوجي لرئيس الحكومة، الذي يعتقد مثل معظم الإسرائيليين أن المعارضة العربية العامة للاعتراف بهذا المطلب تشكك في مجرد وجود دولة إسرائيل وتعكس معارضة مبدئية للاعتراف بسيادتها. ويعود هذا الاعتقاد السائد إلى انعدام التمييز بين مجرد الاعتراف بدولة إسرائيل وبين الاعتراف بها كدولة يهودية. ويضيف أن هناك في المجتمعات العربية من يعارض بالفعل الاعتراف بدولة إسرائيل، لكن ليس كل العرب يرفضون الاعتراف بها، فاتفاقيتا السلام اللتان وقعتا بين إسرائيل وبين كل من مصر والأردن تضمنتا بنداً صريحاً للاعتراف بدولة إسرائيل، وعشية التوقيع على اتفاق أوسلو تبادل رئيس الحكومة الإسرائيلية إسحق رابين ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات رسائل في شأن هذه المسألة. لكن، في هذه الاتفاقات لا يوجد تطرّق إلى الاعتراف بإسرائيل كـ «دولة يهودية». ويشير إلى أن الاعتراف السياسي والقانوني بدولة إسرائيل هو شرط ضروري في اتفاقات السلام مع الطرف العربي، غير أن الهوية القومية والثقافية للمجتمع الإسرائيلي هي موضوع داخلي.

ويعتبر ميتال من أشد المتابعين لأحداث «الربيع العربي» في إسرائيل من منظور بحثي صرف. وهو يعد نفسه باحثاً وليس مستشرقاً. وكان قبل عدة سنوات قد كتب سوية مع البروفسور حجاي رام، أستاذ تاريخ الشرق الأوسط في جامعة بن غوريون، مقالاً مشتركاً بعنوان «محنة الاستشراق الإسرائيلي» أكدا فيه أن «أصحاب التوجّهات الأمنيّة» بين الباحثين والباحثات في قضايا الشّرق الأوسط هم مستشرقون بالنيابة يعتريهم في كثير من الأحيان الشعور بالاستعلاء، إن لم يكن العنصريّة، إزاء المجتمعات العربيّة.

وبحسب رأيه، فإن المطالبة بالاعتراف بإسرائيل كدولة يهودية في سياق الصرع الإسرائيلي – الفلسطيني بشكل عام، وطرحها في مرحلة المفاوضات على الاتفاق الدائم بشكل خاص، ينطويان على ثلاث دلالات أساسية:

- أولاً، إلغاء شرعية المطالبة بالاعتراف بالحقوق التاريخية للفلسطينيين في وطنهم أو على الأقل في الجزء الأكبر منه. وقبول مطلب نتنياهو مثله كمثل الموافقة من جانب الرئيس الفلسطيني محمود عباس على شطب ذاكرة النكبة وإلغاء الرواية التاريخية الفلسطينية بالنسبة إلى حرب ١٩٤٨؛
- ثانياً، دلالة تتعلق بطرح هذا المطلب الإسرائيلي في المفاوضات السياسية. فالمطلب يشكك في موقف الفلسطينيين بالنسبة إلى سيادتهم على جزء من القدس ولا سيما على الحرم الشريف، الذي هو «جبل الهيكل». فهل يُعقل أن نتنياهو، بعد مطالبته بالاعتراف بإسرائيل كدولة يهودية، سيتنازل عن السيطرة على المنطقة التي تتضمن الموقع الذي كان فيه قدس أقداس اليهودية؟ كما أن الاعتراف بإسرائيل دولة يهودية يحبط إمكان تحقيق اتفاق في ما يتعلق بمسألة اللاجئين المشحونة؛
- ثالثاً، دلالة تتعلق بالرسالة القاسية التي تطلقها مطالبة نتنياهو إلى المواطنين الفلسطينيين في إسرائيل، رسالة تُعبر عن التنكر ولا سيما إزاء صلتهم بوطنهم التاريخي. وفي العقد الأخير تتعاظم مظاهر التنكر من جانب الأغلبية اليهودية للهوية التاريخية والقومية للأقلية كجزء من الشعب الفلسطيني. وتشكل أحداث تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٠ («هبة أكتوبر») مؤشراً إلى طريق فهم الفلسطينيين من مواطني إسرائيل للدولة وموقف الأغلبية منهم، وخصوصاً أن التأييد المباشر وغير المباشر لمطلب اشتراط المواطنة بإعلان الولاء لم يعد من نصيب مؤيدي حزب «إسرائيل بيتنا» اليميني المتطرّف وحدهم.

ويعتبر ميتال من أشد المتابعين لأحداث «الربيع العربي» في إسرائيل من منظور بحثي صرف. وهو يعد نفسه باحثاً وليس مستشرقاً. وكان قبل عدة سنوات قد كتب سوية مع البروفسور حجاي رام، أستاذ تاريخ الشرق الأوسط في جامعة بن غوريون، مقالاً مشتركاً بعنوان «محنة الاستشراق الإسرائيلي» أكدا فيه أن «أصحاب التوجّهات الأمنيّة» بين الباحثين والباحثات في قضايا الشّرق الأوسط هم مستشرقون بالنيابة يعتريهم في كثير من الأحيان الشعور بالاستعلاء، إن لم يكن العنصريّة، إزاء المجتمعات العربيّة، هذا علاوةً على أنهم يتعاونون بشكلٍ جليّ أو بصورة خفيّة مع المؤسّسة الحاكمة أو المؤسّسة الأمنيّة الإسرائيليّة، وبصنيعهم هذا فإنهم يخالفون بصورة فظّة الحواجز التي تفصل بين الجامعات ومراكز الأبحاث وبين مؤسّسات الدولة. وهؤلاء المستشرقون يخونون عمليّاً دورهم كمفكّرين، والذين يتعين عليهم بموجبه تحدّي منطق الإجماع الوطني. كما أن الادعاءات التي يطرحها الكتّاب ذوو التوجّهات الأمنيّة تكرّس في الخطاب العام أسطورة «الاستبداد الشرقي» الاستشراقي وتغذّي ظاهرة فوبيا الخوف من الإسلام. إنهم يصفون انتفاضة المجتمع المصري على تنوّع طوائفه على أنها حالة من الفوضى قام بها «رعاع» عديم القيادة ويفتقر إلى الوعي السياسي «الحديث». وضياع نظام حسني مبارك تم عرضه كانهيار السّد الأخير، الذي كان بوسعه منع سيطرة القوى الإسلاميّة على مصر، علماً بأنّ هذا التنبّؤ لم يتحقّق حتى اللحظة.

ويضيفان: على الرّغم من ذلك، يجب التحفّظ والقول إنّ الاستشراق الإسرائيليّ– تماماً مثل «الشارع العربي»– غير مصنوع من كتلة متجانسة. ومع أنّ الكثيرين من جماعة المستشرقين في إسرائيل لا يفصلون بين متطلّبات البحث الأكاديمي وبين احتياجات الدولة، ويصرّون على أن يطبّقوا على الشّرق الأوسط مفاهيم ووجهات نظر قديمة يعود تاريخها إلى أيام الاستعمار التقليدي، فإنه ومنذ أن تمّ اختراق الفرضيّات الأساسيّة الاستشراقيّة في مطلع الثمانينيّات من القرن الماضي، هناك الكثيرون ممّن يعكفون على الأبحاث الأكاديميّة لذاتها فقط، وهؤلاء الباحثون يتعاملون مع المجتمعات الإسلاميّة من خلال الانتباه إلى أبعادها المختلفة وإلى موروثها التاريخي والاجتماعيّ والثقافي المتنوّع. حرّر هذا الجيل من الباحثين في الدراسات الشّرق أوسطيّة نفسه من القيود المؤسّساتيّة والفكريّة، والتي يسير بموجبها نظراؤهم ذوو التوجّهات الأمنيّة حتى الآن، ويرفضون بصورة مطلقة مسايرة القاعدة المشتركة التّفسيريّة المتوقّعة منهم في تقويم استقرار (أو زعزعة) الأنظمة في المنطقة. بالإضافةً إلى ذلك، فإنه ومن وجهة نظرهم ونزاهتهم الأكاديميّة، فإنّ هدفهم الرئيس يتلخّص في زيادة المعرفة حول مجتمعات الشّرق الأوسط بمعزلٍ عن الاعتبارات الأخرى، من دون استخدام تلكَ المعرفة لخدمة المصالح الإسرائيليّة الضيّقة، ومن دون أن تفترض فرضيّات روتينيّة تحتّم على المجتمعات الإسلاميّة– العربيّة أن تكون متخلّفة.

أصدر يورام ميتال في العام ٢٠٠٤ كتاباً بعنوان «سلام مكسور: إسرائيل، الفلسطينيون والشرق الأوسط» (منشورات «كرمل»– القدس)، يعرض لـ «عملية السلام» بين إسرائيل والفلسطينيين حتى شتاء ٢٠٠٣، وتحديدا إلى ما قبل إعلان رئيس الحكومة الإسرائيلية الأسبق أريئيل شارون، عن خطته للانسحاب الأحادي الجانب من مستوطنات قطاع غزة وبعض المستوطنات في أقصى شمال الضفة الغربية المعروفة باسم «خطة الانفصال» أو «خطة فك الارتباط» (أعلن شارون عنها خلال خطابه أمام مؤتمر هرتسليا حول ميزان المناعة والأمن القومي الإسرائيلي، في كانون الأول ٢٠٠٣)، وأكد في سياقه أنه على الرغم من أن «كثيرين من الشرق الأوسط وخارجه أطلقوا على الأحداث المتعاقبة، التي من شأنها أن تفضي إلى السلام المرتجى بين إسرائيل والفلسطينيين، توصيف: عملية السلام... فإن ما أفلح الإسرائيليون والفلسطينيون في إحرازه على مدار العقد الممتد بين العام ١٩٩٣ والعام ٢٠٠٣

يورام ميتال

لم يكن، في التحصيل الأخير، أكثر من «عملية» انعكست في العديد من الاتفاقات والتسويات وفي القليل من مضامين السلام المهمة وذات الدلالة».

وأنهى ميتال كتابه بوقفة متأملة في من أسمي بـ «شارون الجديد»، الذي بدأت وسائل الإعلام الإسرائيلية بتسويقه على هذا النحو بعد أن أعلن قبوله لرؤيا الرئيس الأميركي جورج بوش (الابن)– في حزيران ٢٠٠٢– كخطة لائقة لتسوية المواجهة الإسرائيلية– الفلسطينية، على رغم استنادها إلى مبدأ «دولتين للشعبين»، وهو المعروف بكونه من أشدّ معارضي هذا المبدأ ومن أشدّ الأعداء الألدّاء لفكرة قيام دولة عربية أخرى بين النهر والبحر، وبكونه أكثر المتمسكين إن لم يكن «المبتكر» لمفهوم «الأردن هو الدولة الفلسطينية»، فيتساءل: هل يدلّ قبول شارون لرؤيا إقامة دولة فلسطينية وتصريحاته التي تشفّ عن إقرار بعدم جدوى استمرار السيطرة بالقوة على الشعب الفلسطيني، على جهوزيته للتوصل إلى تسوية دائمة تشمل حلّ جميع القضايا المختلف عليها بين الشعبين؟ أم أن أفقه السياسي ما يزال أشد ضيقا وفي صلبه قيام دولة فلسطينية في قطاع غزة وفي نصف مساحة الضفة الغربية بحيث يكون مدى استقلال هذه الدولة (الدويلة) وسيادتها خاضعا على نطاق كبير لرغبة حكومة إسرائيل وإرادتها؟.

رأى ميتال أيضاً أن برنامج أوسلو وسياسة الولايات المتحدة، إلى ما قبل أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، شكلا منارتين «شقّ الإسرائيليون والفلسطينيون طريقهما على هدي نورهما سنوات طويلة». وقد تلقت هاتان المنارتان طعنات نجلاء خلال السنوات ٢٠٠٠- ٢٠٠٣، بحيث أن محاولات تأهيلهما لا تزال شديدة التعقيد.

وتنطوي خطة أوسلو، برأيه، على ثلاثة مركبات تشكل عمادها وقوامها. هذه المركبات هي: الاعتراف المتبادل؛ مأسسة «عملية السلام» خلال المرحلة الانتقالية؛ الالتزام بالتوصل إلى اتفاق بشأن الحل الدائم يتم في إطاره إجمال الموضوعات الأكثر استعصاء على الحل.

ومع أنه لا يجيب على هذا السؤال حصرا من النقطة الزمنية التي طرحه فيها، إلا أنه لا يدع مجالاً للشك في أنه يجهل الجواب عليه.

فلدى انتقاله إلى الحديث عن خطة «خريطة الطريق» للرباعية الدولية، التي يخصص لها أحد فصول الكتاب، يأخذ على حكومة شارون أن تأييدها للخطة المذكورة جاء بعد تسجيل ملاحظات عليها أقل ما يمكن القول فيها إنها تفرغها من مضمونها، وليس قبل تبني الإدارة الأميركية لها.

ويخضع الباحث «التغيير»، الذي يجري تسويقه لدى شارون، للفحص والتحليل بناء على مواقفه التي تلت أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة ومن مبادرة السلام العربية. غير أنه في موازاة قبول خطة الرباعية الدولية، وإكمالاً له، راج في السجال العمومي في إسرائيل في تلك الأيام الافتراض التبسيطي بأن الولايات المتحدة تبنت «خريطة الطريق» فقط من أجل تعويض رئيس الوزراء البريطاني، توني بلير، على وقفته الحازمة إلى جانب إدارة بوش في الحرب على العراق. «وهكذا تمّ، مرة أخرى، تسطيح مصالح وطنية لدول (وبينها الولايات المتحدة) في رواية أفقية جرى قبولها من دون استئناف وروفقت بتأويلات جوفاء كانت في معظمها عودة على تقييمات شائعة في المؤسسة الإسرائيلية»، على ما يؤكد.

في واقع الأمر فان ميتال يوجّه سهام نقده الجارح في الكتاب كافة، من ألفه إلى يائه، صوب التبسيط والتسطيح اللذين عادة ما كانا، في قراءته، بمثابة صفة ملازمة لجملة من مفاهيم السياسة والساسة في إسرائيل إزاء الصراع وإزاء الفلسطينيين والشعوب العربية جمعاء، وهي الصفة التي كانت تسعف المصابين بها في تجاهل السياقات المخصوصة فيؤدي الأمر إلى نتائج معكوسة، أو على الأصح لا يؤدي إلى النتائج المرجوة.

وبناء على ذلك فهو يشدّد على أن غاية كتابه هي تعزيز الدعوات المختلفة الملحة لإعادة النقاش في الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني إلى سياقاته التاريخية والسياسية، التي جرى تغييبها في غمرة التأجيج المتواتر والمكثف للروايات المركزية في المجتمعين، خلال السنوات القليلة الماضية استنادا إلى ميراث متراكم في هذا الخصوص.

رأى ميتال أيضاً أن برنامج أوسلو وسياسة الولايات المتحدة، إلى ما قبل أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، شكلا منارتين «شقّ الإسرائيليون والفلسطينيون طريقهما على هدي نورهما سنوات طويلة». وقد تلقت هاتان المنارتان طعنات نجلاء خلال السنوات ٢٠٠٠- ٢٠٠٣، بحيث أن محاولات تأهيلهما لا تزال شديدة التعقيد.

وتنطوي خطة أوسلو، برأيه، على ثلاثة مركبات تشكل عمادها وقوامها. هذه المركبات هي: الاعتراف المتبادل؛ مأسسة «عملية السلام» خلال المرحلة الانتقالية؛ الالتزام بالتوصل إلى اتفاق بشأن الحل الدائم يتم في إطاره إجمال الموضوعات الأكثر استعصاء على الحل.

كما رأى أن رصاصات يغئال عمير، التي اغتالت رئيس الحكومة الإسرائيلية الأسبق إسحق رابين، في ٤ تشرين الثاني ١٩٩٥، أصابت الهدف المتوخى منها وهو كبح العملية السياسية. غير أن ميتال، في موازاة ذلك، يولي أهمية كبيرة لقرار شمعون بيريس، خليفة رابين في كرسي رئاسة الحكومة

يغئال عمير: اغتيال أوسلو.

وقيادة حزب «العمل»، إبقاء السيطرة الإسرائيلية على مدينة الخليل، الذي كان قرارا ذا مفعول نافذ في عدم توفير الحماية المطلوبة للعملية السياسية «وقد أدرج المستوطنون في تلك المدينة في عداد ما جرى اعتباره في إسرائيل النواة الصلبة للمستوطنين... وعلى خلفية التوترات بين التيارات السياسية المتخاصمة في إسرائيل آثر رئيس الحكومة عدم المجازفة بدخول مواجهة مع هؤلاء المستوطنين وأنصارهم». وفي سياق لاحق، لكن متصل، ينوه الباحث بأن جميع خروقات إسرائيل لما تضمنه اتفاق أوسلو من التزامات تكاد تتقزّم حيال سلوكها في موضوع الاستيطان، الذي كانت غايته الرئيسة ولا تزال إيجاد ظروف ووقائع ميدانية تحول دون تقسيم البلد ودون قيام دولة فلسطينية مستقلة ذات تواصل إقليمي. ويضيف أن جماهير المستوطنين وأنصارهم كانوا على مدار السنوات عنصرا شديد التأثير في الساحة السياسية في إسرائيل. وحقيقة أن أي حكومة في إسرائيل لم تفلح بعد أوسلو في إتمام ولايتها القانونية تعدّ تعبيرا ملموسا عن انعدام الاستقرار السياسي. ويلفت إلى أن جميع حكومات إسرائيل المتعاقبة في العقد الأخير أيّدت وأعطت الضوء الأخضر لتوسيع المستوطنات ومصادرة الأراضي وخلق مواقد احتكاك مع الفلسطينيين بين الفينة والأخرى. وخلال السنوات الثماني الأولى من «عملية أوسلو» زاد عدد المستوطنين بنحو ٨٠ بالمئة، فيما تشكل الزيادة الطبيعية نسبة ضئيلة من هذا الارتفاع.

ولم تكن مسايرة بيريس للمستوطنين أو، بحسب تعبير ميتال، مسايرته للنواة المتطرفة من المستوطنين، النقطة الوحيدة التي عَنَت أو كان فيها ما يؤشر إلى انكسار «عملية أوسلو»، في موازاة جريمة اغتيال رابين، ضمن سياقها الإسرائيلي. وإنما كانت هناك أيضا نقاط انكسار أخرى أبرزها فترة ولاية بنيامين نتنياهو الأولى في رئاسة الحكومة، التي استمرت ثلاث سنوات «تميزت بجهد لا يكلّ لحرف برنامج أوسلو عن مسار تطبيقه». ويؤكد أن إيهود باراك، الذي ارتسم في الوعي الإسرائيلي باعتباره «مكمّل طريق رابين»، لم يكن على هذا النحو بالتمام والكمال.. فقد اشتهر عنه تحفظه من برنامج أوسلو في فترة توليه منصب رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي ومنصبي عضو كنيست ووزير عن حزب «العمل». و«خلال نقاشات في الكنيست وحول طاولة الحكومة عرض باراك مساوئ برنامج أوسلو، وامتنع عن التصويت على الاتفاق المرحلي».

كل هذه القضايا حملناها إلى هذه المقابلة المطولة مع ميتال التي بدأنا بها كما هي العادة بسؤال عن سيرته الذاتية أجاب عنه ميتال على النحو الآتي:

ميتال: «ولدت في حيفا في العام ١٩٥٨، لكن عائلتي كانت تسكن في تل حنان، التي كانت تسمى قبل ذلك بلد الشيخ. وبعد

سنوات طويلة جدا اكتشفت أنني كنت أسكن في بيت لفلسطينيين. ولم أكن أعرف ذلك عندما كنت صغيرا، فقد انتقلنا من هذا البيت عندما كنت في الرابعة من عمري. وعندما جاء الصاعدون الجدد (المهاجرون اليهود) إلى البلاد، أسكنوهم في بيوت كهذه، وأعتقد أنهم لم يدفعوا شيئا في المقابل. وقد حصل جدي على بيت كهذا على سفح الجبل، كما أن والدَيَّ حصلا على بيت كهذا بمجرد أن تزوجا. ولا أذكر شيئا عن هذا البيت، سوى أننا انتقلنا من هذا البيت إلى شقة. لكنني أذكر أنه كان لدينا بيت عربي. هكذا كان يسمي اليهود كل بيت من هذه البيوت: "بيت عربي". والمقصود بيت من طابق واحد مبني من الحجر. تل حنان كانت قرية. وفي حينه لم تكن تساورني أي أسئلة. وهذه الأسئلة جاءت في مرحلة متأخرة جدا. وقد انتقلنا للسكن في حيفا، التي عشت فيها معظم سنوات حياتي. ولهذا درست في جامعة حيفا أيضا. وكنا نسكن في شارع هرتسليا، على مقربة من وادي النسناس. وأذكر هذه الحقيقة بالأساس لأن والدَيَّ قدما من المغرب، وكانا صغيرين، في العاشرة من عمرهما، وتم وضعهما في الكيبوتس مباشرة، ولم يكونا يعرفان اللغة».

(*) سؤال: في أي عام هاجرا إلى البلاد؟

ميتال: «في العام ١٩٤٨. وهما من مواليد ١٩٣٥ أو ١٩٣٦. ألقوا بهما في الكيبوتس. وكانا ممنوعين من التحدث بالعربية، وهي لغتهما في المغرب. ومنعا من التحدث بالفرنسية، التي تعلموها في المدرسة. وكان الشعار: "العبري يتحدث العبرية". لكن يتعين عليّ أن أقول إنه لم يكن في بيتنا أو في عائلتنا أي عداء تجاه العرب. ولم أسمع أمورا سيئة عن العرب أبدا. وبعد سنوات طويلة جدا، عندما بدأت أدرس في الجامعة، وقررت أن تاريخ الشرق الأوسط هو الموضوع الذي يهمني، بدأت تراودني أسئلة كثيرة جدا. ما هذا البيت الذي سكنا فيه رغم ذكرياتي الضئيلة جدا حياله؟ ولا أذكر كيف يبدو من الداخل، لكني عرفت أن أمرا كهذا كان موجودا. وهذه الأمور أثارت فضولي. من هم هؤلاء اليهود، ومن هم العرب؟ كانوا يسمونهم "عرب". لم يسموهم "فلسطينيين" في الستينيات والسبعينيات، وإنما كانوا يقولون بشكل عام "العرب"، أو "عرب إسرائيل" وتعريفات أخرى. كأنهم (الإسرائيليون) حاولوا الفصل بين الفلسطيني والعربي ومحو بعض هويته، بما يحوله إلى شيء آخر. ولا أعرف إذا كانوا يعلمون ماذا يريدون أن يفعلوا. وقد كبرت في هذه الأجواء. وبدأت الأمور تتضح لي بعد حرب الأيام الستة (حرب حزيران) في العام ١٩٦٧. وأعتقد أن كل هذه المنطقة التي نعيش فيها، تعيش في ظل محطتين: العام ١٩٤٨ والعام ١٩٦٧. هاتان هما المحطتان الكبيرتان. وثمة من اعتقد أن أوسلو (١٩٩٣) ستكون محطة مهمة، لكني أعتقد، قياسا بالمحطتين التاريخيتين، أن أوسلو حدث فيها أمر آخر.

«أنا متزوج، ولدي ثلاثة أبناء. وأسكن في الجنوب، وهذا أمر مبدئي. يهمني ألا أسكن في وسط البلاد. بإمكاني أن أسكن في الشمال أو الجنوب».

على المثقف أن يطوّر نظرة نقدية إزاء القوة كما علمنا إدوارد سعيد

(*) سؤال: لماذا لا تسكن في الوسط؟

ميتال: «الوسط هو المركز ويعني القوة. وأعتقد أنه إذا أراد أحد درس المجتمع الإسرائيلي بشكل حقيقي، فعليه أن يدرس الأطراف أكثر من المركز. فالمركز يبتلعنا ويجرفنا، وتوجد فيه الكثير من القوة، ويمكن أن يسكرك. وتل أبيب أو مواقع القوة في المركز تشبه الأماكن في وسط القاهرة، وكأن هذه مصر كلها. ويسمون هذه المنطقة "مصر". لكن هذا مضلل. ففي الأحياء والضواحي، عندما تصل إلى الفيوم أو المنصورة، كأنك وصلت إلى بئر السبع».

(*) سؤال: هل طوّرت هذه الرؤية كباحث أيضاً؟

ميتال: «الشخص الذي كان له تأثير كبير جدا عليّ في التفكير في هذه النقطة هو إدوارد سعيد. فكتاباته حول من هو المثقف قصيرة لكنها مهمة للغاية. ومن الجائز أن هذا هو أحد الأسباب التي تجعلني أتحدث عن رؤية المركز من جهة الهامش. وأنا لا أهرب ولا أعيش في مكتب. وليس جيدا أن يتقوقع الأكاديميون. ينبغي أن نكون منفتحين تجاه المجتمع والقيام بما أسماه إدوارد سعيد «الدور الاجتماعي للمثقف». إن وظيفتنا المهنية هي أن نكتب مقالاتنا العلمية، لكن لدينا وظيفة اجتماعية أيضا، وهي ألا نكون جزءا من القوة، وإنما أن نكون ناقدين لها. وهذا ما نجلبه إلى المجتمع. فهناك الكثيرون الذين يعانون من القوة. وأعتقد أن على جزء من المثقفين، كتاب وأدباء ومفكرين وأكاديميين، أن يكونوا نقديين وأن يفكروا بموجب مفاهيم كونية، حول ما هو عادل وما هو ليس عادلا، وحول الحرية وسلب الحرية، وأنا أحاول التفكير بإسرائيل وفلسطين انطلاقا من هذه الرؤية. وما حدث في فرنسا أخيراً (الاعتداء على مجلة «شارلي ايبدو») هو أمر مزعزع. وأنا

الشخص الذي كان له تأثير كبير جدا عليّ في التفكير في هذه النقطة هو إدوارد سعيد. فكتاباته حول من هو المثقف قصيرة لكنها مهمة للغاية. ومن الجائز أن هذا هو أحد الأسباب التي تجعلني أتحدث عن رؤية المركز من جهة الهامش. وأنا لا أهرب ولا أعيش في مكتب. وليس جيدا أن يتقوقع الأكاديميون. ينبغي أن نكون منفتحين تجاه المجتمع والقيام بما أسماه إدوارد سعيد «الدور الاجتماعي للمثقف». إن وظيفتنا المهنية هي أن نكتب مقالاتنا العلمية، لكن لدينا وظيفة اجتماعية أيضا، وهي ألا نكون جزءا من القوة، وإنما أن نكون ناقدين لها.

أحاول أن أنظر إلى هذا الأمر من هذه الزاوية والقول إنه توجد أمور كونية. وهناك أمور يحاول المثقف من خلالها النظر إلى الأمور ولا يقول إنني متميز ولذلك فإن ما هو موجود لدى الآخرين ليس جيدا، لأنني حالة خاصة. ولا أعتقد أن إسرائيل هي حالة خاصة. فإذا كانت حالة خاصة فسامحوها إذاً، بسبب المحرقة. لكن يوجد الكثير من "الحالات الخاصة" هذه في العالم. وأعتقد أنه ينبغي النظر إلى قيم مشتركة لعصرنا، مثل قيمة "الحرية" وقيمة "العدل"، التي يجب أن تكون موجودة في الخطاب. ولا يتحدثون بالشكل الكافي هنا عن هذه القيم. يتحدثون كثيرا عن المصالح وعن الضائقات. ولا أقول إن هذا ليس مهما، لكن لا يتحدثون كفاية عن العدل والحرية. وإذا كان هناك من يتحدثون عن الحرية، فإنهم لا يتحدثون بمفاهيم كونية وإنما بمفاهيم محلية، مثل الحديث عن دولة يهودية وتوجد فيها حرية لليهود بالأساس. هذه هي القبلية والنظرة المحلية. وأعتقد أن هذه الرؤية تأخذ إسرائيل إلى مكان غير جيد أبدا من الناحية الأخلاقية، وحتى من حيث التصريحات في الماضي حول ما أرادت هذه الدولة أن تكون. وأعتقد أن أحد أسباب ذلك هو الخطاب في المجتمع الإسرائيلي الذي ذهب باتجاه فئوي جدا وضيق ومغلق. ومن هذه الناحية، يبدو أن المجتمع الإسرائيلي قرر أن تكون دولته غيتو. وهو لا يريد أن تكون أي شيء آخر».

(*) سؤال: هل بإمكانك أن تربط بين هذه الرؤية كلها وبين ما حدث في المحطتين، ١٩٤٨ و١٩٦٧. لأنه منذ ١٩٤٨ وحتى ١٩٦٧، لا نعتقد أنه كان هناك مكان كبير لتفكير كهذا، أي للرؤية المحلية القبلية والتعامل مع إسرائيل على أنها غيتو.

ميتال: «لقد كان استخدام الخطاب على النحو التالي: أولئك الذين بلوروا الخطاب في المجتمع الإسرائيلي، بين ١٩٤٨ و١٩٦٧، سواء أكانوا سياسيين أم شعراء وأدباء ومفكرين وأكاديميين، لم يطلبوا السلام، لأنهم لم يؤمنوا بأن هذا ممكن، وأيضا لأنهم طلبوا بالأساس اعترافا، أن يكون هناك اعتراف بهذه الدولة التي ولدت للتو. وما تم كسره في العام ١٩٦٧ هو الشعور بأنه لم تعد هناك حاجة لهذا الاعتراف. من يحتاج إلى العرب؟ ماذا سنستفيد من اعترافهم؟ ففي العام ١٩٤٧ كان قرار التقسيم. والجانب اليهودي الصهيوني، وبعد نقاشات ليست سهلة، وافق عليه. والجانب العربي رفضه، وقال إنه لا يستطيع الاعتراف بإقامة دولة كهذه لأن هذا قرار ظالم. هكذا قالت الأغلبية العربية. والجانب الإسرائيلي طلب اعترافا به وحصل عليه من خلال قرار التقسيم، في تشرين الثاني العام ١٩٤٧. وقال الجانب العربي: "نعم، هُزمنا". وقد كانت هذه أزمة هائلة. وقال المثقف العربي المهم، قسطنطين زريق، عندما كتب عن النكبة، وكان أول من كتب قصة النكبة، إن مشكلة العالم العربي من نواح عديدة لن تُحل من خلال الصراع مع الصهاينة فقط وإنما ستحل فقط بعد حدوث ثورة في العالم العربي. ولذلك، فإنه عندما صعد النظام الناصري إلى الحكم في مصر وجرت الوحدة مع سورية، فإنه رأى بذلك أمرا مباركا جدا. وعندما وقعت الحرب في العام ١٩٦٧ كتب قسطنطين زريق عن النكسة، لأنها أحدثت انكسارا كبيرا. وكانت هذه السنة محطة كبيرة ومهمة في الجانب الإسرائيلي الصهيوني. ولكن بعد العام ١٩٦٧ قالت الدولة إنها تحدثت عن السلام لكن الآن لديها شروط للسلام، والشرط الأول هو أن يعترف العالم العربي بهزيمته في العام ١٩٤٨. وقالت أيضا إن القرار رقم ٢٤٢ يعني أن علينا أن نتحدث عن حدود الصراع الأخير في أعقاب حرب الأيام الستة. وما كان قبل ذلك انتهى. بعد ذلك عُقدت قمة الخرطوم التي قالت لا للاعتراف بإسرائيل.

«من أجل أن نفهم، تاريخيا، الرؤية الأوسع حول ما هي هذه الدولة، فإن الرجل الأول الذي وضع النقاط على الحروف، كما يقولون، هو زئيف جابوتينسكي. وكان ذلك من خلال مقال بعنوان "الجدار الحديدي"، نشره في العام ١٩٢٣، ووضع فيه أسس الخطاب الذي نشهده اليوم. وبنيامين نتنياهو لم يخترع شيئا، وإنما جعل موقفه أكثر تطرفا. وقال جابوتينسكي في مقاله إنه سيكون هناك اعتراف بالدولة اليهودية. لكن هذا الاعتراف سيتم بعد معارك كثيرة. وهو يقول إنهم سيضربون رأسهم بالجدار الحديدي، مرة تلو الأخرى، وفي النهاية سيعترف العرب بأنهم لا يستطيعون هدم هذا الجدار وأن الدولة اليهودية باتت حقيقة.»

صورة مدبلجة تجمع جابوتنسكي مع نتنياهو، منقولة عن مجلة تابلت الالكترونية.

والنقاش حول الاعتراف بإسرائيل هو نقاش عميق جدا وأعتقد أنه أمر مصيري بالنسبة للمجتمع الإسرائيلي، لأنه بعد ١٩٦٧ انتقل هذا النقاش من الاعتراف بدولة إسرائيل إلى النقاش الذي نتواجد فيه الآن حول الاعتراف بالدولة اليهودية. وهذان الأمران ليسا متشابهين. فالاعتراف بدولة إسرائيل يعني أنك تعترف بدولة مثل جميع الدول في العالم، لديها حدود وحكومة، وهكذا يعرفونها في العالم. وعندما وقع أنور السادات على اتفاق سلام مع مناحيم بيغن لدى الأميركيين، كان هناك اعتراف بدولة إسرائيل. وعندما تبادل عرفات ورابين الرسائل في فترة أوسلو، في العام ١٩٩٣، كُتب أن إسرائيل تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثلة للشعب الفلسطيني، وأن المنظمة تعترف بدولة إسرائيل. والأمر نفسه تكرر في اتفاقية السلام مع الأردن في العام ١٩٩٤».

مطلب الاعتراف بإسرائيل دولة يهودية غير شرعي

(*) سؤال: لماذا تطالب إسرائيل بالاعتراف بها كدولة يهودية؟

ميتال: «إن التغيير الكبير الذي حدث بعد أوسلو هو ليس أنهم نجحوا في الحديث حول قيام دولة فلسطينية. برأيي أن التغيير الأهم، التاريخي، كان أن هذه العملية بدأت باعتراف كلا الجانبين ببعضهما البعض، ثم وصلت الأمور بسرعة إلى وضع توقفت فيه الأمور عن التقدم، لكن كلما علقت العملية السياسية أو فشلت، انتقل الخطاب كله في المجتمع الإسرائيلي من المطالبة بالاعتراف بإسرائيل كدولة سيادية إلى الاعتراف بالدولة اليهودية. وهذا الأمر أعادنا عمليا إلى الحديث عن العام ١٩٤٨، أي أننا عدنا إلى المربع الأول. وستقول لك غالبية الإسرائيليين، وليس اليمين فقط، إن العرب لا يعترفون بصورة عميقة بحقنا في الوجود لأنهم يعارضون الاعتراف بالدولة اليهودية. والسجال الدائر في إسرائيل، وهنا برز فشل المثقفين، هو حول الفجوة السحيقة بين الاعتراف الشرعي بدولة إسرائيل لدى من يؤيدون حل الدولتين، وبين المطلب غير الشرعي بأن تفرض على الجانب الآخر الاعتراف بهويتك».

(*) سؤال: لقد تغيرت أمور كثيرة في إسرائيل في السنوات الأخيرة، وخاصة في السنتين الأخيرتين، وربما هذا حدث بسبب اندفاع تيار في الصهيونية يسمى «الصهاينة الجدد» إلى الأمام؟

ميتال: «من أجل أن نفهم، تاريخيا، الرؤية الأوسع حول ما هي هذه الدولة، فإن الرجل الأول الذي وضع النقاط على الحروف، كما

يقولون، هو زئيف جابوتينسكي. وكان ذلك من خلال مقال بعنوان "الجدار الحديدي"، نشره في العام ١٩٢٣، ووضع فيه أسس الخطاب الذي نشهده اليوم. وبنيامين نتنياهو لم يخترع شيئا، وإنما جعل موقفه أكثر تطرفا. وقال جابوتينسكي في مقاله إنه سيكون هناك اعتراف بالدولة اليهودية. لكن هذا الاعتراف سيتم بعد معارك كثيرة. وهو يقول إنهم سيضربون رأسهم بالجدار الحديدي، مرة تلو الأخرى، وفي النهاية سيعترف العرب بأنهم لا يستطيعون هدم هذا الجدار وأن الدولة اليهودية باتت حقيقة. وهذه ليست الفترة التي تحدثوا فيها عن "الدولة المزعومة". وإنما يوجد جدار وهو متين. وقال جابوتينسكي أيضا إنه ضمن هذا المشروع للدولة اليهودية سيكون هناك وجود، وحتى أنه وجود كبير، لمجموعة سكانية عربية مدنية تحصل على مساواة مدنية كاملة. وقد قضى اليمين بزعامة بنيامين نتنياهو على هذا الأمر بالكامل. لقد قضى على النضال من أجل الحقوق، وهو نضال شمولي. وعندما اتجه الخطاب أكثر فأكثر في الاتجاه القوموي، ليس القومي، فإن ما حدث عمليا هو أن نتنياهو أصبح ضحية الخطاب الذي سرّع دفعه هو بنفسه. وقد غذى هذا الخطاب طوال كل فترة عملية أوسلو. وبنظري، نتنياهو ليس زعيما ولا حكيما، وإنما هو محنك. وقد انتخب رئيسا للحكومة في ولايته الأولى، بعد أن صوّت طبعا ضد كافة الاتفاقيات. وكان يعلم أنه ليس بإمكانه إلغاء هذه الاتفاقيات، لكنه أدخل إلى الخطاب حول ما يسمى بعملية السلام، نقاشات كثيرة أدت إلى انهيار أساسات الاعتراف، التي هي الأساس لحل الدولتين. وقد تسبب بهذا الانهيار بطريقة سلسة».

(*) سؤال: لماذا تصف نتنياهو بأنه «ضحية»؟

ميتال: «لو كان هذا هو هدفه ولو كان هذا هو ما يريده، فإنه ليس ضحية. وأنا أقول إنه ضحية خطابه، لأنه اعتقد- هكذا أنا أرى الأمور- أنه سينجح في السيطرة على هذه العملية لسنوات طويلة، وفي غضون ذلك، فإن ما سيحدث هو أن تتحول المستوطنات إلى واقع غير قابل للتغيير، وفي أفضل الأحوال سيكون هناك نوع من الحكم الذاتي للفلسطينيين، وهذا وضع كان بيغن أيضا مستعدا لقبوله. وهذا يعني أنه سيجري الحديث عن عملية سلام، بينما ما سيحدث من الناحية الفعلية في واقع كهذا هو أن الخطاب العام الإسرائيلي سيفتت الأساس الذي يفترض أن يستند إليه هذا الحل. وقد فعل نتنياهو ذلك من خلال نزع الشرعية بشكل مطلق عن الجانب الفلسطيني. وقد نفذ ذلك طوال الوقت، لأنه تحدث عن الدولة اليهودية طوال الوقت. وهو ليس غبيا. وقد أخذ هذا الأمر إلى مكان إشكالي جدا في عقلية الجانب الإسرائيلي. فعندما يقول إن الفلسطينيين لا يعترفون بالدولة اليهودية، ومعظم الإسرائيليين يعتقدون ذلك، فإن معظم الإسرائيليين يقولون لأنفسهم إن الفلسطينيين لا يعترفون بنا فلماذا ينبغي أن نصنع سلاما معهم. وبرأيي أن هذا هو الأساس لفهم نتنياهو. لقد بدأ بفكر جابوتينسكي لكن الأمور خرجت عن السيطرة، ولذلك هو ضحية. ونتنياهو لا يشكل الجناح اليميني داخل حزبه، الليكود. فقد جاء آخرون، وكأنهم تحت زعامته، مثل داني دانون وميري ريغف وزئيف إلكين، لكنهم أكثر تشددا منه. وهو ليس قادرا على لجم خطابهم. وهذا الخطاب غير قابل للسيطرة، لأنه عندما تبدأ بالتحدث بمصطلحات قوموية ومحلية إلى أبعد حدّ، فإنه سيكون هناك دائما من هو أكثر يمينية منك. والسؤال الكبير هو ما إذا كان بإمكانه وقف هذا الانجراف أم لا؟».

(*) سؤال: هل يملك نتنياهو قوة لإيقاف هذا الخطاب اليميني المتطرف؟

ميتال: «كلا، لأنه يتعين عليه في هذه الحالة إلغاء كل ما بناه في ولايته الأولى، وليس باستطاعته أن يفعل ذلك. الآن فكرا بظاهرة نفتالي بينيت. فحزب "البيت اليهودي" ورث حزب المفدال، الذي كان حزبا صغيرا وفئويا، بينما "البيت اليهودي" يعبر عن خطاب قوموي. وقد اعتقد نتنياهو أن ناخبي "البيت اليهودي" سيؤيدونه، لكن لماذا يتعين عليهم أن يفعلوا ذلك بوجود ساحر جديد. وهناك ظاهرة "شبيبة التلال". غالبيتهم أبناء مستوطنين، لكن أهاليهم لم يفعلوا ما يفعله هؤلاء الأولاد. وأقول أولاد لكنني لا أقصد القول إنهم ليسوا جديين. إنهم يرتكبون جرائم. فعندما يلقي أحدهم زجاجة حارقة على بيت فلسطيني في الليل، أو يقوم باقتلاع كرم زيتون، فإنه مجرم. وعندما سعى نتنياهو إلى انهيار خطاب الاعتراف بإسرائيل فإنه عمليا فتح الباب أمام خطاب آخر بالمطلق عندما يطالب بالاعتراف بالدولة اليهودية. وأعتقد أن هذا الأمر لا يمثل نتنياهو وحزب الليكود فقط، وإنما إذا نظرت حتى إلى تصريحات ما يسمى بمعسكر اليسار، ستجد أن الكثيرين في معسكر اليسار يتحدثون بمصطلحات مشابهة. من أين جاءنا هذا؟ ألم يكن بن غوريون يعرف أن بالإمكان المطالبة بدولة يهودية؟ فقد تحدث قرار التقسيم عن إقامة دولة يهودية ودولة عربية. وهذا ما هو مكتوب في نص القرار. ومع ذلك قرر في أيار ١٩٤٨ "إننا نعلن بهذا عن قيام دولة إسرائيل". أي أنه أخذ هذا المصطلح، "دولة يهودية" ومنحه الصورة التي كانت مقبولة في العالم، دولة لها اسم. هناك

دولة أخرى في العالم فقط لديها اسم ديني، هي دولة الفاتيكان».

(*) سؤال: كانت هناك حالة شبيهة إلى حدّ ما بنتنياهو هي أريئيل شارون، الذي قاد الأمور في اتجاه معين هو الاستيطان. وفي نقطة زمنية محدّدة قطع هذا الاتجاه، عندما أخلى مستوطنات في سيناء وبعد ذلك في قطاع غزة. هل يمكن القول إن شارون كان شخصية قوية بينما نتنياهو ليس قويا وغير قادر على تغيير الاتجاه التي تسير فيه إسرائيل؟

ميتال: «لا أتفق كثيراً مع هذا الوصف. ولا علاقة لذلك بزعيم قوي أو ضعيف. أعتقد أن الخطاب أمر يصعب السيطرة عليه. عندما بدأ ايهود باراك في صيف العام ٢٠٠٠، وكان هذا قبل وقت طويل من ولاية نتنياهو الثانية، الحديث حول عدم وجود شريك، فهذا يعني أنه أعادنا إلى العام ١٩٤٨، إلى ما قبل إقامة الدولة. إن عبارة "لا يوجد أحد للتحدث معه" تعني أن الجانبين سيتجهان إلى القتال. ومن هذه الناحية، فإن شارون شبيه جدا بمعظم قياديي حزب مباي، وليس الليكود. وقد تبنى قادة مباي مفهوم جابوتينسكي حول الجدار الحديدي. وباراك هو جدار حديدي. فما فعله باراك هو كأنه قال إنه مستعد للتوصل إلى سلام مع ما أسماه "الاقتراح السخي" في قمة كامب ديفيد الثانية، لكنه بنى السور، لأنه لا يريد أن يرى الفلسطينيين بعينيه. وهذا هو خطاب الدولة اليهودية نفسه، لأن ما يقوله هو أنه داخل هذا الإطار ستقوم دولة توجد فيها أقلية عربية، لكن ليس لديها أي علاقة مع الجانب الآخر. وشارون قال إنه سينفذ خطة الانفصال انطلاقا من هذه الاعتبارات نفسها، وكأننا سنتخلص من مليون ونصف مليون غزيين في حينه، وأنه سيدخل في صراع (داخلي) من أجل إخلاء المستوطنين إلى داخل إسرائيل، وفيما يتعلق بالضفة فإن الحد الأقصى الذي قد يحصل عليه الفلسطينيون هو حكم ذاتي، فيما مشروعه الأكبر كان بناء السور. قارن بين باراك وشارون ولن تجد إلا فروقاً صغيرة».

(*) سؤال: ونتنياهو؟

ميتال: «نتنياهو جاء وفي جعبته مفهوم أيديولوجي. وفي اللحظة التي تتحدث فيها عن دولة يهودية، فإنك لا تعود تتعامل مع الموضوع بمصطلحات جغرافية. بالنسبة له فإنه بين النهر والبحر ستكون هناك دولة واحدة، يوجد بجوارها جيبان اصطناعيان فلسطينيان: الأول نوع من الحكم الذاتي في رام الله، وبالنسبة لنتنياهو بإمكان أبو مازن أن يسمي نفسه رئيس العالم. والثاني في غزة سيكون شيئا آخر تماما. وهذا يعني أن ما نص عليه اتفاق أوسلو، أن الضفة الغربية وقطاع غزة هما كيان سياسي واحد، لا يوافق عليه نتنياهو بأي حال من الأحوال. أذكر أنه بعد توقيع اتفاقيات أوسلو تم وضع لافتات في طرقات الجنوب هنا توجهك إلى ما أسموه "المعبر الآمن" وإلى الطريق إلى غزة. هكذا كانت الفكرة حينذاك. نرى اليوم أنه تم القضاء على هذه الفكرة بأكملها».

لماذا فشلت «عملية أوسلو»؟

(*) سؤال: هل تعتقد أن عملية أوسلو فشلت؟

ميتال: «لقد فشلت عملية أوسلو لعدة أسباب أساسية. مهما تكن هذه الأسباب سأتوقف عند سببين رئيسين منها: الأول، أنه من بين كل ما يسمى بالاتفاقيات لم يكن هناك أي آلية أو نظام يرغم الجانبين على احترام ما اتفقا عليه. وهذا يعني، بنظري، أنهم أبقوا الجانبين يتواجهان مع بعضهما، بينما توازن القوى بينهما واضح منذ البداية. وإذا أراد الجانب الفلسطيني الآن إرغام الجانب الإسرائيلي على تنفيذ شيء، فإنه لن يتمكن من القيام بذلك لأن السلطة الفلسطينية متعلقة بإسرائيل أكثر مما هي مستقلة. والسبب الثاني، هو أن الجانب الإسرائيلي قال في أوسلو، وقد أقر إسحق رابين بذلك، إنه لا توجد تواريخ مقدسة. وهذا يعني أنه لا توجد نهاية للعبة. وأنا أصف ذلك بأنه يوجد حديث حول السلام وفي الخطاب العام تُستعمل عبارة "عملية السلام"، لكن لا توجد علاقة بين هاتين الكلمتين».

(*) سؤال: لماذا صنعوا أوسلو إذاً؟

ميتال: «هذا سؤال معقد جداً، وحتى أنا كمؤرخ ليست لدي إجابة عليه. لكنني أعتقد أن رابين كان أشبه بشخص ما دخل إلى نهر هائج وأصبحت رجلاه فيه لكنه لم يقرر كيف سيعبره، وبقي عالقا في وسط النهر. وكانت مصافحة رابين لعرفات في مراسم توقيع اتفاقيات أوسلو باردة لأنه لم يرغب بمصافحته وقد ظهر ذلك على وجهه، ولو أمكنه ذلك لما صافحه وهذا تعبير رمزي. وهناك تعبيرات كثيرة كهذه مثلما حدث عندما أخذ عرفات وباراك يدفع أحدهما الآخر إلى داخل الغرفة في قمة كامب ديفيد، فقد عبر هذا المشهد عن توازن القوى بين الجانبين. وفي النهاية تم دفع عرفات إلى الغرفة. وكان أمراً مريحاً جداً لإسرائيل لكونها اعتبرت أنها لن تتمكن من التوصل إلى اتفاق حول دولتين، وذلك، بالأساس، لأنه لا يوجد احتمال بأن يوافق الجانب الفلسطيني على الترتيبات الأمنية التي تطالب بها إسرائيل. وأنا أتحدث عن فترة رابين».

«لقد فشلت عملية أوسلو لعدة أسباب أساسية. مهما تكن هذه الأسباب سأتوقف عند سببين رئيسين منها: الأول، أنه من بين كل ما يسمى بالاتفاقيات لم يكن هناك أي آلية أو نظام يرغم الجانبين على احترام ما اتفقا عليه. وهذا يعني، بنظري، أنهم أبقوا الجانبين يتواجهان مع بعضهما، بينما توازن القوى بينهما واضح منذ البداية. وإذا أراد الجانب الفلسطيني الآن إرغام الجانب الإسرائيلي على تنفيذ شيء، فإنه لن يتمكن من القيام بذلك لأن السلطة الفلسطينية متعلقة بإسرائيل أكثر مما هي مستقلة. والسبب الثاني، هو أن الجانب الإسرائيلي قال في أوسلو، وقد أقر إسحق رابين بذلك، إنه لا توجد تواريخ مقدسة.»

(*) سؤال: الموقف الإسرائيلي أصبح أكثر تشدّداً الآن.

ميتال: «الموقف الآن موجود في مكان آخر لأنهم لا يتحدثون في الناحية الجغرافية أبدا، وإنما عن الدولة اليهودية فقط».

إسرائيل و «الربيع العربي»

(*) سؤال: هل كان هناك تأثير لـ«الربيع العربي» على إسرائيل؟

ميتال: «توجد عدة أمور ينبغي قولها بشأن الربيع العربي. الأمر الأول يتعلق بالناحية التاريخية. علينا أن نذكر أننا نعرف متى بدأ الربيع العربي لكننا لا نعرف في أي مرحلة منه نحن موجودون ولا نعرف متى سينتهي. ومن يعتقد أن عبد الفتاح السيسي أصبح رئيسا لمصر وبذلك انتهى الأمر فإنه لا يرى الأمور بصورة صحيحة».

(*) سؤال: ما الذي تتوقعه بهذا الشأن؟

ميتال: «أرى الربيع العربي كموج البحر، ليس موجة واحدة كبيرة تحدث تسونامي وبعدها ينتهي الأمر، وإنما هناك أحداث أخرى يمكن أن تتواصل في أماكن عديدة. وكل المفهوم الإسرائيلي للوضع الأمني الجيو- سياسي تغير منذ العام ٢٠١١. ولم يحدث هذا التغيير بسبب إسقاط نظام زين العابدين بن علي في تونس، وإنما بسبب إسقاط حسني مبارك في مصر وبسبب ما يحدث في سورية. هذان هما الأمران المركزيان، لأنه بالنسبة لإسرائيل، مع مفهوم "الجدار الحديدي" وما شابه، فإن هناك رؤية واحدة فقط لدى معظم الإسرائيليين،

باراك ونتنياهو: فروق طفيفة.

هي الرؤية الأمنية. وبالنسبة لإسرائيل فإن الشريك الأكثر جدية الذي كان لدينا أسقِط، وبعد ذلك بدأ نتنياهو يتحدث، ليس عن الربيع العربي، وإنما عن الشتاء الإسلامي. والجميع هنا تحدثوا عن أنه ها هم الإخوان المسلمون يصعدون إلى الحكم. وتم إسقاط محمد مرسي ونحن لا نعرف ماذا سيحدث للسيسي. وفي سورية تدور حرب أهلية، وتسقط هناك أعداد جنونية من القتلى يوميا. وسورية لن تعود كما كانت قبل العام ٢٠١١. ويوجد لذلك تأثير كبير جدا على إسرائيل. وإذا ربطت حال الربيع العربي مع الخطاب القوموي حول الدولة اليهودية، فإن هذا يعني أن إسرائيل ستبني سورا أعلى من الحالي وبسمك مضاعف. أي أن إسرائيل، في المدى الزمني المنظور، لن تتجه

«نحن موجودون في مكان أكثر إشكالية من المكان الذي كنا فيه قبل ٢٠ عاما. قبل ٢٠ عاما كانت المسألة تقسيم البلاد، وكيف نقسمها، رغم أني لا أعرف إلى أين أراد رابين أن يصل، لكني باعتقادي أن رابين لم يكن يسير باتجاه الدولتين، لكننا حقا لا نعرف لأنه قُتل. ونحن نعرف أين نحن موجودون اليوم. والمشكلة الأساسية في إسرائيل اليوم، وأقول ذلك كمثقف وكفرد في هذا المجتمع، هي الخطاب السياسي، وليس الفعل السياسي فقط. وقد يبدأون عملية سياسية، لكن طالما أن الحزب المنافس اسمه "المعسكر الصهيوني" فإننا سنبقى في بيئة الخطاب نفسه».

إلى عملية سلام ولا إلى أي شيء من هذا القبيل. وما سيحدث هو أننا سنستمر في الصراع مع المجموعات المتطرفة للغاية، مثل "شبيبة التلال"، وفي موازاة ذلك فإنه في كل مرة يتعرضون فيها للمستوطنين الأكثر تطرفا سيتم تعزيز الاستيطان وتكثيف البناء في المستوطنات، إلى جانب تكثيف البناء في المستوطنات في القدس طبعا. ومن هذه الناحية، فإن هذا القطار الذي يسمى عملية السلام قد توقف منذ فترة طويلة».

(*) سؤال: هذا يعني أن العنصرية في إسرائيل تجاه العرب ستتصاعد أيضا؟

ميتال: «نعم. ولذا قلت سابقا إن الخطاب في إسرائيل تحول إلى قوموي أكثر. هذا الخطاب لم يعد يتحدث عما كان الحل مع الجانب الفلسطيني في الضفة الغربية والمناطق المحتلة. إنه يتحدث عن كيف سيكون الحل داخل إسرائيل. وهذا هو المكان، الذي قلت لكما سابقا، إن نتنياهو لا يسيطر على الأمور فيه. وإذا نشأ واقع سياسي مختلف تماما مما نراه اليوم، وهذا ممكن لأننا في مرحلة انتخابات، لربما ينجح واقع سياسي جديد في وقف هذا الانجراف، لكن الامتحان لن يكون بالإعلان عن بدء مفاوضات، فهذا لا يعتبر تغييرا. سأشعر بحدوث تغيير في إسرائيل، عندما يتغير الخطاب السياسي، ويتم الكف عن التحدث حول الدولة اليهودية بمفهوم "نحن متميزون وغير عاديين".عندها بالإمكان القول إننا نسير باتجاه مغاير. وربما سيسمح هذا الأمر ببدء حديث حول حلول أخرى. والفكرة، وهي سطحية بنظري، هي أن الكثيرين يعتقدون أنه بإسقاط اليمين سيصعد اليسار وبالطبع ستبدأ عملية سياسية. برأيي أن المشكلة ليست على هذا النحو. فنحن موجودون في مكان أكثر إشكالية من المكان الذي كنا فيه قبل ٢٠ عاما. قبل ٢٠ عاما كانت المسألة تقسيم البلاد، وكيف نقسمها، رغم أني لا أعرف إلى أين أراد رابين أن يصل، لكني باعتقادي أن رابين لم يكن يسير باتجاه الدولتين، لكننا حقا لا نعرف لأنه قُتل. ونحن نعرف أين نحن موجودون اليوم. والمشكلة الأساسية في إسرائيل اليوم، وأقول ذلك كمثقف وكفرد في هذا المجتمع، هي الخطاب السياسي، وليس الفعل السياسي فقط. وقد يبدأون عملية سياسية، لكن طالما أن الحزب المنافس اسمه "المعسكر الصهيوني" فإننا سنبقى في بيئة الخطاب نفسه».

(*) سؤال: هل تعتقد أن الحراك في العالم، مثل الحديث عن عزل إسرائيل، وقرارات برلمانات أوروبية الاعتراف بفلسطين، من شأنها أن تنقذ الوضع؟

ميتال: «أنا أعتقد العكس. الخطوات الرامية إلى عزل إسرائيل ومقاطعتها تجعل الخطاب السياسي في إسرائيل أكثر تطرفا. وليس صدفة أن أشخاصا في اليسار، مثلي، لسنا مؤثرين. تأثيرنا ينحصر بأننا نقديون، لكن الوسط السياسي الإسرائيلي يتجه طوال الوقت نحو اليمين، وهذه هي نتيجة الخطاب القوموي».

انحسار التوجه النقدي في الجامعات الإسرائيلية

(*) سؤال: كيف يؤثر ذلك على الصراعات داخل إسرائيل. أنت كأكاديمي، كيف تشعر بهذا الخطاب في الجامعة؟

ميتال: «الخطاب القوموي موجود داخل الأكاديميا الإسرائيلية، وبإمكانك أن تسمع الطلاب، وهم الجيل الشاب، وجميعهم ليسوا

قوميين متطرفين، لكن توجد على ألسنة الكثير منهم عبارات الخطاب القوموي. أنا محاضر في موضوع الشرق الأوسط، وأتحدث عن مواضيع مثل الإسلام السياسي ودولة إسرائيل والعالم العربي. ووفقا للأسئلة والإجابات التي يطرحها الطلاب، أدرك جيدا أن الخطاب شائع في هذا الجيل، ومركز هذا الخطاب موجود في صلب الخطاب القوموي. هذا من جهة. ومن الجهة الأخرى، هناك إدارات الجامعات، التي تحاول المناورة. فعندما يُطرح موضوع التمويل تدخل إدارات الجامعات في مشكلة. من جهة هذه جامعات عامة والحكومة ترصد لها ميزانيات، كما أن الحكومة تعين قسما كبيرا من أعضاء مجلس التعليم العالي، وهكذا تؤثر على الجامعات بطريقة غير مباشرة. وهناك أعضاء في إدارة الجامعات يقولون لك إنهم يصوتون لأحزاب أخرى، وليس للحزب الحاكم، لكن في الوقت نفسه لا يريدون الدخول في مواجهة مع الحكومة. وتتفاقم المشكلة مع المتبرعين. ويحدث أن محاضرا ما يقول أمرا نقديا، وعندها يتصل المتبرع برئيس الجامعة ويقول له إنه كان يعتزم التبرع بخمسة ملايين دولار، ولكن يجب فصل ذلك المحاضر أو الباحث. ورئيس الجامعة لا يمكنه فصل المحاضر، وما يحدث هو أن الجامعة خسرت المال. هكذا هو الوضع بشكل عام. وفي الوسط هناك السلك الأكاديمي، الذي بغالبيته لا يزال القطاع الأخير في الدولة الذي يجرؤ على توجيه الانتقاد. ولذلك، بالمناسبة، أعتقد أن مقاطعة السلك الأكاديمي هي بمثابة إطلاق النار على الأرجل. وهذا لا يخدم القضية، لأنه إذا كان هناك قطاع يجرؤ على توجيه الانتقاد للحكومة فهو السلك الأكاديمي. من سيربح من مقاطعة الأكاديميين؟ الخطاب القوموي وأفراد يمينيون في الأكاديميا».

(*) سؤال: كانت الجامعة هنا في بئر السبع منبرا نقديا، هل ما زالت كذلك؟

ميتال: «أولاً، توجد توترات كثيرة، وحتى بين أفراد السلك الأكاديمي. لكني أعتقد أنه بقيت كليتان في إسرائيل كلها يوجد فيهما توجه نقدي. الأولى هي كلية العلوم الاجتماعية في جامعة بن غوريون. وغالبية طاقمها الأكاديمي تشارك في النقاش السياسي وتهتم به وتكافح، وهذا ليس بالأمر البسيط. والثانية هي الكلية الموازية في جامعة تل أبيب. في باقي الكليات تجد محاضرين هنا وهناك، لكن لا أرى نقدا في الجامعة العبرية ولا في التخنيون أو معهد وايزمان في رحوفوت، وبالتأكيد ليس في جامعة حيفا».

(*) سؤال: هل تعتقد أن لديك، كأكاديمي يهودي إسرائيلي من أصول شرقية، دور معين. هل تشعر أن ثمة قيمة إضافية لجذورك العربية كمثقف؟

ميتال: «يصعب عليّ الإجابة عن هذا السؤال لسبب بسيط. فأنا لا أعرف ما الذي أثّر عليّ أكثر، العائلة والأصول أم كوني تخصصت في العالم العربي. أعتقد أنه يوجد تأثير لكلا الأمرين. وأعرف عددا كبيرا من الأشخاص الذين يعملون في مجال الشرق الأوسط، ولم يأتوا من عائلة شرقية، ولا يحملون أفكارا مختلفة عن أفكاري. وهناك بالطبع موضوع اليهود الشرقيين في إسرائيل وهو موضوع كبير جدا».

(*) سؤال: هل كونك باحثاً في موضوع الشرق الأوسط ويحمل أفكارا متنورة ونقدية له تأثير أكثر من باحثين آخرين؟

ميتال: «عندما نتمعن في أنفسنا بمفاهيم كونية لا أقول إنه لأن والدي جاءا من المغرب لدي رأي معين. وإذا كنت تسأل عن الموضوع الشرقي، يوجد في المجتمع الإسرائيلي أمر مذهل، وهو أن قسما كبيرا– حوالي ثلاثة أرباع– من اليهود الشرقيين يصوتون لليمين. والسؤال هو: كيف يعقل أن هؤلاء بالذات، الذين أتوا من دول عربية، يصوتون لمواقف ضد العرب أكثر من أولئك الذين أتوا من أوروبا وأميركا وأماكن أخرى؟ الجميع في عائلتي يصوتون لحزب الليكود، تاريخيا. ونتنياهو لا يهمهم أبدا ولا يهمهم من هو مرشح الليكود. وجدي رحمه الله كان يبارك الطعام مساء يوم الجمعة والأعياد وكان يبارك أيضا "زعيمنا مناحيم بيغن". وكان بيغن حينذاك في المعارضة ولم يكن يحلم بأن يصبح رئيس حكومة. ولقد كان بيغن "زعيمنا" لأنه كان ضد مباي، ضد المؤسسة الحاكمة. كذلك هناك ناحية قومية، وهي أنه كان عليهم أن يثبتوا أكثر من أي أحد آخر أنهم ليسوا عربا. وقلت لكما سابقا إنهم كانوا يمنعون والدَيَّ من التحدث بالعربية. ماذا يعني هذا؟ هذا يعني أنهم طالبوهم بإلقاء ثقافتهم وأن يكونوا إسرائيليين جددا. أي أن يكونوا مثل المجموعة المركزية، مثل الأشكناز. وعمليا خلعوا عنهم كل ثقافتهم الأساسية. لقد سمعت أم كلثوم في البيت، لكن صوت المذياع بقي خافتا كي لا يسمعوا في الخارج "أعطني حريتي، أطلق يدي" حتى لا يظنوا أنه يوجد تمرد. وكان الاتجاه أن اليهود الشرقيين لا يمكن أن يكونوا عربا. بإمكانهم أن يكونوا أي شيء لكن ليس عربا. وعليهم أن يكونوا ضد العرب. واليهود الشرقيون بين نواب الكنيست

يحملون الخطاب القوموي. وأعتقد أن ما حدث لليهود الشرقيين هو مأساة. لقد تم اقتلاعهم من كل أسسهم والنتيجة هي أنه نتج عن ذلك شيء ليس حقيقيا. وجيل جدي كان أشبه بيهود الشتات لا ينتمون إلى هنا ولم يعرفوا اللغة العبرية أبدا. وأذكر جدتي عندما كانت تغني لي بالاسبانية. لم يعرفوا كيف يتصلون بمحيطهم. وجيل آبائنا لم يكن يتحدث بالعربية. فقد وضعوهم في الكيبوتس، التابع لحركة "هشومير هتسعير"، وأصبحوا صهاينة أكثر منا».

نحن في خضم نقطة حرجة من الصراع!

(*) سؤال: بنظرة إلى المستقبل، ماذا ترى؟

ميتال: «يصعب عليّ كثيرا، كمؤرخ، أن أتحدث عن المستقبل. رغم ذلك فإن ما أراه في المستقبل القريب هو أن الاتجاهات التي شهدناها في السنوات الأخيرة ستستمر. وسأرى أن ثمة احتمالا للتغيير عندما يتغير الخطاب العام الحالي الموجود في مكان غير جيد أبدا. شخصياً أريد أن نصل إلى مرحلة نعيش فيها ضمن دولة توجد فيها مساواة بين الجميع. والحدود ستمر في المكان الذي سيتم الاتفاق عليه، وأنا أقول ذلك في سياق واسع جدا. لو كانت هنا أغلبية وقالت إن ما كان في الماضي يسمى فلسطين، وتوجد هنا دولة واحدة وجميع المواطنين فيها متساوون، فإنني أريد أن أعيش في دولة كهذه. لكنني لا أعتقد أننا ماضون إلى هناك. أعتقد أن الاتجاه الذي يمكن أن نراه بالعين، ليس اتجاه الدولتين ولا ثلاث دول، وكأن قطاع غزة سيتحول إلى دولة منفصلة. وهو ليس اتجاه الدولة الواحدة أيضا. من هذه الناحية كان هناك نبي بين المثقفين الإسرائيليين اسمه ميرون بنفنيستي فهم الوضع وقال قبل سنوات إننا وصلنا إلى نقطة حرجة في الصراع وهو غير قابل للحل إلا إذا حدثت مأساة. هذا نوع من الحرب الأهلية. وقد كنا في حرب أهلية بين تشرين الثاني ١٩٤٧ وحتى أيار ١٩٤٨. وأخشى أن تتدهور الأمور إلى وضع كهذا، وليس مهما بين من، إذ يمكن أن تنشب حرب كهذه بين المستوطنين والدولة. يصعب تنبؤ التاريخ، لكن توجد هنا مؤشرات عديدة بشأن مستقبل إسرائيل. ويوجد هنا سجال بين مذهبين وقد سمعته مرات عديدة جدا من المستوطنين الذين قالوا لي إن ما أقوله يبدو منطقيا لكني على خطأ من الأساس، لأنني أقول إن العام ١٩٦٧ شكل محطة سلبية وهم يقولون إنه شكل محطة إيجابية. في العام ١٩٦٧ بدأوا يستوطنون وكانوا قلائل في سنوات السبعين، مئات وبعد ذلك أصبحوا آلافا. وكان في الحكم حزب العمل، ومع مرور السنين ازداد عدد المستوطنين. واليوم، كما يقولون، بعد أربعين عاما، يوجد في المناطق المحتلة نصف مليون مستوطن على الأقل. وأضف إلى ذلك المستوطنات في القدس. وعندها يسألون: من المخطئ من الناحية التاريخية، نحن أم أنت؟ وهكذا يتحدثون في اليمين: إذا أردت أن تتحدث من الناحية التاريخية، فتعال بعد أربعين عاما، وسيكون عدد المستوطنين مليونين. ثم يبادرون إلى طرح سؤال آخر: هل تعتقد أن أحدا ما بإمكانه نقل مليوني نسمة؟. وماذا سيحدث للفلسطينيين؟ معظم المستوطنين سيقولون لك: لن نحمّل الناس على الشاحنات. هم سيغادرون بأنفسهم، لأنه لن يكون لطيفا عيشهم هنا، ولن يكون مريحا وسيواجهون مشاكل كثيرة. وسيقول الفلسطينيون، بحسب المستوطنين، إنهم يريدون العيش بهدوء والخروج إلى العمل صباحا وتوجد إمكانية كهذه فقط في كندا. هكذا يفكر المستوطنون. وهذا وضع ينذر بأنه ستجري مواجهات وصدامات كثيرة، والمستوطنون يقولون إنه لا يمكن تفادي ذلك ويعتبرون أن "البلاد كلها هي دولة واحدة وستكون هنا دولة يهودية". وأنا لا أرى الخيار الآخر بأن تعود إسرائيل إلى العقلانية. وليتني أكون مخطئاً».

(*) سؤال: هناك من يقولون إن ثمة أهمية لحدوث صدمة من أجل التغيير...

ميتال: «هذا ما أقوله. الوضع هنا يبدو غير قابل للتغيير. ومن أجل الخروج منه يجب أن تحدث أزمة شديدة جدا، كارثة، تعيد خلط الأوراق من جديد. الوضع مأساوي... يوجد في إسرائيل مكان اسمه "دولة تل أبيب"، وهو مركز القوة في إسرائيل. ولا أقصد أن يسقط صاروخ سكود فيها، فهذا سيؤدي إلى رد فعل معاكس والناس ستتجه إلى اليمين أكثر. ولكن حدوث كارثة جدية تضرّ بالقوة الاقتصادية الإسرائيلية، أو التكنولوجية، أو تهدد بحرب على إسرائيل، يمكن أن تؤثر على إعادة خلط الأوراق. وهذا لا يبدو في الأفق. لا توجد تهديدات مهمة من هذه الناحية. ولذلك تسمح إسرائيل اليمينية لنفسها بالاستخفاف بالعالم. أنظرا مثلاً إلى ما يفعله نتنياهو بالرئيس الأميركي باراك أوباما».